إيمان الفطرة - ١

عن محمود بن لبيد ، رضى الله عنه ، قال : لما قدم أبو الحيسر أنس بن رافع مكة ومعه فتية من بنى عبد الأشهل فيهم إياس بن معاذ يلتمسون الحلف من قريش على قومهم من الخزرج ، سمع بهم رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فأتاهم فجلس إليهم ، **فقال لهم :**

" هل لكم فى خير مما جئتم له ؟ " فقالوا له : وما ذاك ؟

قال : " أنا رسول الله ، بعثنى الله إلى العباد ، أدعوهم إلى أن يعبدوا الله ولا يشركوا به شيئاً و أنزل علىّ الكتاب ".

قال : ثم ذكر لهم الإسلام ، و تلا عليهم القرآن ، قال: فقال إياس بن معاذ ، وكان غلاماً حدثا:**أى قوم هذا و الله خير مما جئتم له ....**

حديث حسن ، أخرجه أحمد و البخارى و الحاكم و غيرهم

....

هذه القصة النبوية تقدم لنا صورة من الحياة فى الجاهلية قبل أن يدخل الناس فى دين الله أفواجاً . فقد كانت القوة هى المهيمن أو المسيطر على العقلية العربية السائدة آنئذ . ومن لا يملك القوة فإنه لا يستطيع أن يعيش عزيزاً مكرّماً .. بل يبقى تحت رحمة الآخرين ، مهدداً ذليلاً ، يتعرّض للمهانة كلما سنحت الفرصة لغيره .. هذا هو منطق الواقع الصحراوى الخشن الذى لا تحكمه قوانين ولا تحميه حكومة راسخة ..

لقد ذهبت بنو عبد الأشهل بقيادة أبو الحيسر أنس بن رافع من المدينة ، وكانت تسمى يثرب ، إلى مكة كى يتحالفوا مع قريش على قومهم من الخروج ، والحلف يْعنىَ النصرة والمؤازرة و القتال إلى جانب الحليف ضد خصومه و أعدائه . ومجىء بنى عبد الأشهل من مسافات بعيدة لطلب التحالف من قريش ؛ يعنى أن

القوم كانوا فى وضع حرج للغاية ضد خصومهم ، فلو كان الأمر محدوداً لتحالفوا مع أقرب القبائل إليهم حول المدينة أو على مسافة قصيرة منها ، ولكنهم قطعوا مئات الأميال بحثاً عن حليف يحقق لهم الفوز و المساندة أمام العدّو أو الخصم .

ولا شك أن حياة صعبة مثل هذه الحياة التى يحياها بنو عبد الأشهل ، وغيرهم من القبائل و العشائر و البطون العربية قبل الإسلام ، تكشف لنا عن نعمة كبيرة أسبغها الله سبحانه وتعالى على العرب الذين خلوا فى دين الله أفواجاً ، فتحقق لهم الأمن والرخاء ، واستظلوا بنعمة الأخوة فى الدين ، وهى الأخوة التى حطمت العصبية الجاهلية ، وجعلت العرب المسلمين يحظون بنظام إنسانى رائع يقوم على الأخوة والمساواة و العدل ، وتراجعت فكرة " الهيمنة للقوى " أو "السيطرة للغالب " لتحل محلها قيم أخرى تحّض على الخير و المعروف و العفو و التسامح .. فلم تعد القبائل فى حاجة كى تعيش بكرامتها إلى التحالف مع قبائل أخرى تسندها و تعضدها .. وصار ضميرها الداخلى هو الذى يحركها بمنهج الإسلام ونظامه و تشريعه ، فلا يبغى أحد على أحد ، ولا يجور فريق على فريق .. لقد انتقل المجتمع إلى وضع آخر فيه حضارة و إنسانية و تناغم شامل ، و ينطلق من مفاهيم الإسلام وتشريعاته ، بوصفه كتلة واحدة لا قبائل متناحرة ..

سمع الرسول – صلى الله عليه وسلم – بوفد بنى عبد الأشهل القادمين من يثرب للتحالف مع قريش على قومهم ، و عرف أنهم آتون استعداداً لحرب قد تأكل الأخضر و اليابس ، ولكنها بمفهومها تحفظ عرينهم و تبقى على شوكتهم ، فقام بواجبه الدعوى مباشرة ، و ذهب إليهم و جلس معهم ، و سألهم : " هل لكم فى خير مما جئتم له ؟ "

أى إنه عرض عليهم أمراً هو أفضل و أحسن لهم و أقل تكلفة مما جاءوا من أجله ؛ لأنه سيوفر لهم الأمان والعزة والكرامة . وقد استفسروا منه – صلى الله عليه وسلم قائلين : وما ذاك ؟ أى ما هو الأمر الذى تعده خيراً مما جئنا من أجله ؟

فحدثهم عن بعثته صلى الله عليه وسلم و دعوته إلى التوحيد ، و نزول القرآن عليه .

لقد عرض الرسول الكريم أسس الرسالة ، و عرّفهم بنفسه بوصفه رسولاً ونبيّاً " أنا رسول الله ، بعثنى الله إلى العباد ، أدعوهم إلى أن يعبدوا الله ، ولا يشركوا به شيئاً وأنزل علىّ الكتاب " ، و بالضرورة لابد أن تبدأ الدعوة أو أمر الدعوة بقضية العقيدة أو الإيمان ، فالتوحيد هو أساس العقيدة و الإيمان ، و العرب على ما نعلم فى ذلك الزمان كانوا يعبدون الأصنام و الأوثان ، و يشركونها بالله ، و يقدمون إليها القرابين بوصفها تضر و تنفع من منظورهم ، ولكن الدعوة إلى التوحيد تغيّر كل ذلك ، و تحدث إنقلاباً فى العقلية العربية ومن تداعيات هذا الإنقلاب تغيير النظرة إلى الآخرين و الخصوم ، و تحوّل السعى إلى التحالف لمقابلة الخزرج من جانب بنى عبد الأشهل إلى شىء آخر.

إن شرح الإسلام من جانب الرسول – صلى الله عليه وسلم – و تلاوة القرآن الكريم ، على وفد بنى عبد الأشهل فتح فى عقولهم آفاقا جديدة ، و كانت الاستجابة الفطرية للإسلام من جانب هذا الغلام المسمى " إياس بن معاذ " الذى خاطب قومه بتلقائية فطرية .

" هذا و الله خير مما جئتم به " ! فماذا جرى لهذا الغلام ؟

**** ****

"إيمان الفطرة " - ٢

حين عرض النبي - صلى الله عليه وسلم - الإسلام على وفد بني عبد الأشهل الذين قدموا مكة للتحايل مع قريش على قومهم مع الخزرج ، **قال إياس بن معاذ** : يا قوم ؛ هذا و الله خير مما جئتم له .

قال راوي الحديث : فأخذ أبو الحيسر بن رافع حفنة من تراب البطحاء ، فضرب بها وجه إياس بن معاذ ، **وقال** : دعنا منك ، فلعمري لقد جئنا لغير هذا :

قال : فصمت إياس ، وقام رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عنهم ، وانصرفوا إلى المدينة ،وكانت وقعة بُعاث بين الأوس والخزرج .

قال ثم لم يلبث إياس بن معاذ أن هلك .

قال محمود بن لبيد : فأخبرني من حضره من قومي عند موته ، أنهم لم يزالوا يسمعونه يهلل الله تعالى ،ويكبره ، ويحمده ،ويسبحه حتى مات ، فما كانوا يشكون أنه قد مات مسلما . لقد كان استشعر الإسلام في ذلك المجلس . حين سمع من رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ما سمع .

....

لقد دفعت الفطرة النقية السليمة الغلام الحدث ؛ إياس بن معاذ إلى الإيمان مباشرة ، عقب سماعه حديث رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من بيان لمعنى الإسلام والتوحيد ،وقراءة آيات من القرآن الكريم .. لقد دخل الحديث إلى قلب الفتى التقي فآمن من فوره ، وهتف بقومه : " هذا والله خير مما جئتم له ".

إذا كان القوم قد جاءوا إلى مكة لما يحفظ لهم أمر الدنيا ، فالإسلام يحفظ لهم أمر الدنيا والآخرة جميعاً ، و بطريقة أفضل و أحسن مما جاءوا من أجله .

بيد إن إسلام الفتى أو صيحته التى هتف بها فى قومه ، لم تعجب قومه أو كبارهم ، فقد ألقى أبو الحيسر أنس بن رافع التراب فى وجه الفتى ، وقال : دعنا منك لقد جئنا لغير هذا .

و هنا نكتشف مسألتين مهمتين الأولى : هى الاستهانة بصغار السن عموماً و عدم الاكتراث أو الاهتمام بآرائهم و أفكارهم ، و الأخرى ؛ هى التعصب للقديم والسائد دون تفكير فى صوابه أو خطئه ..

إن الاستهانة بالصغار مسألة غير مقبولة ، ولكنها قائمة فى المجتمعات المتخلفة التى تقيس الأمور بغير مقاييسها الحقيقية الدقيقة . هناك من يرى أن صغير السن أو الطفل لا قيمة لآرائه أو أفكاره . و أن القيمة كل القيمة للكبار و العجائز ، و هذا ليس صحيحاً على إطلاقه ، فالصغير أو الطفل إذا أحسنت تربيته كانت آراؤه صائبة فى الغالب ، و أفكاره جيدة فى معظم الأحيان ، حتى لو تعلق الأمر بقضية خطيرة مثل قضية العقيدة .

لقد أسلم على بن أبي طالب – رضى الله عنه – وهو صبى لما يبلغ الحلم بعد؛ وكانت آراؤه و مواقفه منذ صباه من أفضل الآراء و المواقف ، فقد كانت يتمتع بذاكرة قوية وتفكير مرتب ووعى مرهف ، وهو ما جعل الصحابة – رضوان الله عليهم – يستفتونه فيما بعد فى أصعب المسائل الفقهية و أعقدها ، و يجدون عنده الفتوى الصائبة و الرأى السديد .

إن الاهتمام بالطفل بصفة عامة و بأفكاره – أيّاً كانت – أمر مهم ، لأن هذا الاهتمام يقوده و يوجهه إلى الطريق المستقيم و الفكر الصواب و العمل الخير إن شاء الله .

و يروى التاريخ الإسلامى حكايات عديدة كان فيها صغار السّن أكثر توفيقاً و أحكم رأيا من الكبار ، نظرا لما يمتازون به من صفاء الفطرة و نقاء السريرة، فضلاً عن خصوبة العقل .

و الفتى إياس بن معاذ ، و إن كان أصغر قومه بنى عبد الأشهل ، إلا إنه سبقهم بفطرته و طبيعته إلى الرأى السليم و الإيمان الصحيح .

أما التعصب للقديم والسائد دون وعى أو تبصر، فهو خلّة ذميمة أشار إليها القرآن الكريم فى أكثر من موضع، ووصف أصحابها بأنهم قوم لا يعقلون أى لا يستخدمون عقولهم فى التفكر والتدبر والتأمل واتخاذ القرار الملائم.

من ذلك على سبيل المثال قوله تعالى:

"وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقۡتَدُونَ ﴿٢٣﴾ قَٰلَ أَوَلَوۡ جِئۡتُكُم بِأَهۡدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمۡ عَلَيۡهِ ءَابَآءَكُمۡ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ" (الزخرف ٢٤:٢٣)

و قد قدمت السورة لهاتين الآيتين و غيرهما مما ورد فى سياقها بقوله تعالى: "حمٓ ﴿١﴾ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّا جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ" (الزخرف ٤٣:١-٣)

إن طلب تحريك العقل هنا ضرورة لفهم ما يعرض وما يطرح من قضايا و أمور تخص العقيدة أو الإيمان أو غيرهما. ولكن النظرة القائمة على التعصّب دون تفكير تحجب عن أصحابها الحقيقة و الخير، وهو ما نراه الآن فى بعض المجالات. حيث يعتقد أصحابها و خاصة من دعاة التغريب و التبعية أنهم على صواب، وأنهم يمتلكون الحقيقة المطلقة.

إن أبا الحيسر أنس بن رافع لم يفكر حين نطق إياس بن معاذ بالإيمان، ورمى فى وجهه بالتراب. و قال متغطرساً: دعنا منك لقد جئنا لغير هذا لم يستفد أبو الحيسر بدعوة الرسول الكريم – صلى الله عليه وسلم، ولكن الفتى الصالح كتم إيمانه و أسرّ عليه وعرف من حضروا وفاته أنه كان يهلل الله تعالى، و يكبره، و يحمده، و يسبحه حتى مات مسلماً، و تأكد هؤلاء أنه أسلم منذ كان مع قومه بنى عبد الأشهل فى حضرة الرسول صلى الله عليه وسلم – ووعى ما قاله و تأثر به، و إن كان لم يستطع أن يواجه زعيم قومه أبا الحيسر أنس بن رافع، أو يقف فى طريقه لحداثة سنه.

أول من صلى إلى الكعبة -١

يروى كعب بن مالك – رضى الله عنه – فيقول : خرجنا فى حجاج قومنا من المشركين ، وقد صلينا وفقهنا ، ومعنا البراء بن معرور سيدنا وكبيرنا ، فلما وجهنا لسفرنا وخرجنا من المدينة . قال البراء لنا : يا هؤلاء إنى قد رأيت رأياً ، ووالله ما أدرى أتوافقونى عليه أم لا ؟ فقلنا : وما ذاك ؟ قال : رأيت ألاّ أدع هذه البُنْيَةَ منى بظهرٍ – يعنى الكعبةِ – وأن أصلى إليها . فقلنا : والله ما بلغنا أن نبينا صلى الله عليه وسلم – يصلى إلا إلى الشام ، وما نريد أن نخالفه .

فقال : إنى لمصلٍّ إليها . فقلنا له : لكنا لا نفعل .

فكنّا إذا حضرت الصلاة صلينا إلى الشام ، وصلى هو إلى الكعبة ، حتى قدمنا مكة .

قال : وقد كنا عبنا عليه ما صنع ، وأبى إلاّ الإقامة على ذلك ، فلما قدمنا إلى مكة قال لى :

- يا ابن أخى . انطلق بنا إلى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – حتى أسأله عما صنعت فى سفرى هذا ، فإنه والله لقد وقع فى نفسى منه شىء لما رأيت من خلافكم إياى فيه ....

حديث حسن ، أخرجه أحمد والطبرانى والطبرى وغيرهم .

....

تمثل هذه القصة لوناً من ألوان الحياة التى عاشها المسلمون الأوائل ، وكان التشريع الإسلامى لما يكتمل بعد ، فيحاول بعضهم إنطلاقاً من عواطفه ومشاعره تجاه بعض الأماكن أو الأفكار أن يجتهد فى أمور شرعية وفقا لهذه العواطف والمشاعر ، دون دليل حاسم أو فتوى تبيح فعله .

و قصة الحديث تحكى بضمير المتكلم خروج وفد من مسلمى المدينة المنورة فى طريقهم إلى مكة المكرمة بقيادة " البراء بن معرور" سيّد القوم و كبيرهم. و بينما هم فى الطريق إذا بالبراء بن معرور – رضى الله عنه – أن يصلّى نحو الكعبة، فهو لا يريد أن تكون بظهره ، أى خلفه .. كأنه يعّز عليه أن يصلى فى اتجاه آخر، لأن الكعبة أو البُنْية كما سماها ينبغى ألاّ يدعها بظهر منه ، أى يتركها فى خلفه و يتجه إلى غيرها .

وواضح أن هذه القصة جرت قبل تغيير القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة وكان لهذا التغيير صداه فى الواقع الإسلامى عند حدوثه ، فقد كانت عواطف المسلمين المهاجرين وفى مقدمتهم النبى – صلى الله عليه وسلم – تحمل حبّاً جارفاً لمكة المكرمة التى أخرجوا منها بغير حق ، وكان النبى – صلى الله عليه وسلم – يخاطبها بوصفها أحب بلاد الله إليه .

و قد نزلت الآية الكريمة لتحقق أمله – صلى الله عليه وسلم – بالاتجاه فى الصلاة نحوها أو نحو الكعبة تحديداً .

قال تعالى :"قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ "(البقرة ١٤٤)

إذاً هى القبلة التى يرضاها محمد – صلى الله عليه وسلم – و يرضاها المسلمون المهاجرون معه الذين يتوقون إلى التوجه نحوها ، و كذلك البراء بن معرور مع أنه من أهل المدينة المنورة .

وفى مجال عرض الرأى الذى ارتاه البراء بن معرور ، فإن الوفد المرافق له لم يؤيده ولم يتفق معه فيما ذهب إليه ، و قالوا له : والله ما بلغنا أن نبينا – صلى الله عليه وسلم يصلى إلا إلى الشام ، وما نريد أن نخالفه . وهم يقصدون بالصلاة إلى الشام ، الصلاة نحو بيت المقدس فى فلسطين التى نسميها الآن بالقدس ، و فلسطين جزء من الشام .

و نلاحظ هنا أن الوفد المرافق للبراء بن معرور ، كان ملتزماً بما سمعه ويسمعه من النبى – صلى الله عليه وسلم – ولا يتجاوزه إلى اجتهاد شخصى أو رأى ذاتى لأن قضية الدين ليست خاضعة للرأى أو الاجتهاد ، خاصة فيما يتعلق بأمور العبادة التوقيفية أو التى يفصل فيها الوحى . لذا فإن قول الوفد للبراء " وما نريد أن نخالفه " يعنى التزامهم التام بمنهج الرسول الكريم و عدم خروجهم عليه .

ظل البراء فى جانب و الوفد فى جانب . هو يصلى إلى الكعبة وهم يصلون إلى بيت المقدس ، ومع أنهم عابوا رأيه واستهجنوا موقفه ، إلا إنه ظل يصلى إلى الكعبة حتى وصلوا جميعاً إلى مكة .

وقال البراء لكعب بن مالك – رضى الله عنهما – يا ابن أخى انطلق بنا إلى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – حتى أسأله عما صنعت فى سفرى هذا – يقصد صلاته إلى الكعبة – فإنه و الله لقد وقع فى نفسى منه شىء لما رأيت من خلافكم إياى فيه .

كأن البراء استشعر أنه ارتكب إثماً ، أو استشعر حرجا بما فعله ، فكأن لابد أن يعود إلى المرجع الذى يحسم كل خلاف و يقضى بالحكم الصائب .

و العودة إلى المرجعية الإسلامية منهج إسلامى ناضج ، يوجه إلى الصواب و يقضى على كل خلاف ، وقد أشار القرآن الكريم إلى أن أى خلاف

ينشب بين المسلمين فيجب ردّه إلى هذه المرجعية التى تفصل فى كل شىء ؛ صغيراً أو كبيراً .

قال تعالى : "يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً "(النساء : ٥٩)

و قال تعالى :

"وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُواْ بِهِۦ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلاً "(النساء : ٨٣)

و قال تعالى :

"وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَىْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّى عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ "(الشورى :١٠)

المرجعية إذاً هى الله و رسوله ، وهى المرجعية التى راح البراء بن معرور يحتكم إليها بحثاً عن الصواب .

**** ****